نســي القبلـة

الأخ أبو حفص

لقد بقي خيال القدس أمام ناظري منذ أن فارقتها ، إنها البلدة القديمة التي تمتاز بــشوارعها الــضيقة وأســواقها المسقوفة وسورها المحيط بها إحاطة السوار بالمعصم والتي ملكت قلوب جميع المسلمين في مــشارق الأرض ومغاربهــا بمكانتها . إنها المدينة المقدسة ، مسرى الرسول ﷺ وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، إنهــا مدينــة الطفولــة وهدف الرجولة وأمل المستقبل .. وأخيراً أتاني إذن بزيارتها فطار القلب فرحاً وظهرت أسارير الوجه ظهور الشمس في وضح النهار .. وحملت أمتعتي وخرجت في الصباح الباكر عساني أعبر الجسر في وقت معقول ، فإذا بمن بات ليلته على ضفة النهر .. ودار في خيالي ، إنما هو انتظار ساعة ، فإذا بالساعة تتبعها ساعات .. الأطفال حرقتهم الشمس ، والنساء لم يستطعن الوقوف الطويل ، حتى الرجال لم يصمدوا الصمود الذي يرتجى ، والكل في شوق إلى العبــور .. وتلوح في مخيلتي القدس ، مدينتي الحبيبة ، سنلتقي وسأدخل مسجدك وسأدخل حارتي التي كثيراً ما تذكرني بمرضــعة الرسول ﷺ ، إنها حارة حليمة السعدية ، وملعب الأطفال الذي بجوارها ، وآثار موقعٍ للجيش الأردني الذي كــان هناك .. ويمتد الخيال إلى لحظة الوداع . نعم إنها لحظات وإنِ امتدت أياما .. سأفارقها من جديد ، ويعلــم الله مــتى وكيف يكون اللقاء الجديد . ويقطع حبلَ أفكاري صوت الجندي اليهودي منادياً اسمي فأجيب وأدخل غرفة صــغيرة للتفتيش

– أَخرج ما في جيبك وضعه هنا ! ..

وأمتثل الأمر دون معارضة

– اخلع حذاءَك وجواربك

فأفعل ، ثم تمر يدا الجندي على ملابسي ، وبعدها آخذ ما أخرجت من جيبي وألبس حذائي وجواربي ، وأنطلــق إلى مكان تفتيش الأمتعة متمثلاً قول الشاعر : (ولكن دمعي في الحوادث غالي) .. وأخرج بعدها من نقطة التفتيش

والآن قدسي الحبيبة ، إنني على موعد اللقاء ، ويخفق القلب خفقات حينما سألت سائق سيارة :

– إلى رام الله ؟

– لا .. لا يوجد من هنا مواصلات إلاّ إلى القدس أو نابلس ، فاختر ما شئت

القدس أو نابلس ؟ .. نابلس مدينةٌ مررت بها ، إنها حبيبة على قلبي حُبّي لمدينة القدس ، ولكن القدس هي المدينة التي أريد ، و لم أطل التفكير وأدرت نفسي إلى السائق ثانية

- إلى القدس من فضلك

فأشار إلى سيارة وجهتها القدس ، فحجزت فيها مقعداً وانطلقت بعد أن امتلأت بالركاب .. وعند مـــشارف القدس سرق البصر أشعة الشمس المنعكسة من قبة الصخرة الذهبية اللون .. الأشعة المنعكسة في كل اتجـــاه لتقـــول للكون أجمع : أين المسلمون ؟

لقد وصلت القدس ووقفت قليلاً في مرآب السيارات ، إنّ الأمتعة الكثيرة التي معي تعـــيقني علـــى الحركـــة .. الأفضل أن أتوجه إلى رام الله حيث تعيش شقيقتي وبعدها أعود

وعدت إلى القدس ، إلى مسجد قبة الصخرة ودخلته ، لا بد وأن أصلي في الصخرة ذاتها ، ونزلت الدرج ووقفت قليلا : أين القبلة ؟ .. لست أدري .. أنا ابن هذه الديار وأنسى القبلة فيها ، وأصعد إلى المسجد ثانية وأتعرف علـــى اتجاه القبلة فيه ، ثم أنزل ثانية وأقدّر اتجاه القبلة على حسب ذلك ، ثم أصلي إلى أن أسلّم ، فإذا برجلٍ يقـــف عنـــد رأسي ينتظرني :

- أتعرف اتجاه القبلة ؟ ..

فأجبت :

- قدّرته تقديرا
- إنك قد صليت في الاتجاه المعاكس تماما

وينـــزل العرق من جبيني وينتابني شعور غير عادي :

- آسف ، إنني ابن هذه المدينة ولكنني رحلت عنها فنسيت القبلة
- إنك لست وحدك الذي نسيّ القبلة ، الكلّ نسي القبلة التي يتجه إليها ، لقد نسينا إلى مَن نتجـــه في أمـــور حياتنا ، في سياستنا ، في اقتصادنا ، في كل الأمور .. لقد نسينا الإسلام جملةً فلا عجب أن ننسى اتجاه القبلة في الصلاة